

قواعد لغة الحضارات

للمؤرخ الفرنسي فرناند بروديل

Grammaire des civilizations

Fernand Braude

■ هيثم مزاحم ■

فرناند بروديل (1902ـ 1985) هو أحد أشهر المؤرخين الفرنسيين خلال القرن العشرين، بل وأحد أبرز المؤرخين الذين عرفهم العالم حتى اليوم، وهو أحد مؤسسي المدرسة الفرنسية الجديدة لكتابة التاريخ المعروفة باسم «مدرسة الحوليات» التي رأت النور في ثلاثينات القرن الماضي.

وُلد بروديل في عام 1902 في قرية صغيرة في منطقة اللورين الفرنسية الواقعة آنذاك تحت الاحتلال الألماني، وحصل في يوليو 1923 على شهادة التبريز المرموقة. ظل بروديل مرتبطاً جداً بأصوله الفلاحية، وكان يردد دائماً: «أنا مؤرخ من أصل فلاحي»، ومارس مهنة تدريس مادة التاريخ أولاً في الجزائر، التي كانت لا تزال تحت

■ باحث من لبنان.

الاستعمــار الفرنســي، وذلك خلال سنوات 1924 ـ 1932، في مدينة قسنطينة ثم في العاصمة الجزائر.

نــال بروديــل شهادة الدكتوراه عــن أطروحة موضوعهــا «البحر الأبيض المتوســط والعالــم المتوسطــي في عهــد فيليــب الثاني»، وهو عنــوان كتابه الشهيــر الذي يعد أحد أهــم الكتب التاريخية الصادرة في القرن العشرين، والذي نقل إلى لغات عديدة.

وبعد تجربته في التدريس في الجزائر والبرازيل عيّن أستاذاً في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس، وفي عام 1940 اعتقله الألمان، ونقلوه إلــى ألمانيا حيث وضع تحت الإقامة الجبريــة حتى عام 1945، حيث أمضى كل تلــك السنــوات في إعداد رسالة الدكتوراه، وفــي سنة 1947 ناقش رسالة الدكتــوراه وموضوعها «البحر الأبيــض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني».

وعقب الحرب العالمية الثانية أصبح ـ إلى جانب المؤرخ لوسيان فافر ـ مديراً مساعداً لمجلة الحوليات (Les Annales) الشهيرة، ثم أصبح بعد وفاة فافــر عام 1967 مديــراً لها، كما أصبــح كاتباً للشعبة السادســة التطبيقية، حيــث استطاع تحويلها إلى أكبــر مؤسسة للعلوم الاجتماعية في فرنسا، وهو ما أثار حفيظة الجامعات الفرنسية وعلى رأسها السوربون العريقة.

كان هنــاك تطابق بيــن توجه دراسته حــول المتوســط وتوجهات مجلة «الحوليات»، وعيّن في العام 1949 مديراً لمركز الدراسات التاريخية.

مجلة الحوليات

ومعلــوم أن مجلــة الحوليات صــدر أول أعدادها في ينايــر 1929 باسم «حوليــات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي»، ثــم غيّرت اسمها إلى «حوليات

التاريخ»، ثم «أمزاج تاريخية»، وفي عام 1946 تبنّت اسم «الحوليات» «اقتصاديات ـ مجتمعات ـ حضارات». وتميّزت المجلة بمطالبتها ببعث تاريخ جديد يعنى بالاهتمام بدراسة المجتمع والاقتصاد والذهنيات؛ أي «البنى الخفية»، وتقليص التاريخ السياسي والعسكري والحدثي بصفة عامة، كما دعت إلى أن يشمل التاريخ ما هو غير مكتوب مثل علم الآثار وعلم الأيقونات. وقد تأثرت مدرسة «الحوليات» بعالم الاجتماع الفرنسي الشهير إميل دوركهايم، وانشغلت بالحوار مع علماء الجغرافيا، وأبدت اهتماماً ملحوظاً بالاقتصاد، ودعت إلى مزيد من الانفتاح على العالم وعدم الانحباس في فرنسا أو أوروبا. ومع بداية الستينات برزت بوضوح هيمنة الأنثوربولوجيا البنيوية على المجلة بفعل تأثير كلود ليفي ستراوس، وظهر ما سمّي بالتاريخ الجديد.

وقد كتب المؤرخ والقانوني الفرنسي ايف لوموان ـ الذي تعرّف على بروديل عام 1979 وبقي قريباً منه حتى وفاته عام 1985 ـ سيرة حياة بروديل تحت عنوان «فرناند بروديل: طموحات مؤرخ وأشكال قلقة»، قال فيها: إنه يريد من خلال كتابه أن يوضّح «طموحات» المؤرخ فرناند بروديل والأسئلة التي كان يطرحها على نفسه وما حققه، وما لم يستطع تحقيقه من إنجازات، ومصادر قلقه الذي يمكن استشفافه من أعماله، بمعنى أنه ليس «قلقاً بسيكولوجياً»؛ ولكنه ذو «طبيعة علمية»؛ ذلك أن بروديل كان يراوده قلق كبير بشأن «المعنى الجديد» الذي ينبغي أن يأخذه التاريخ في «جوقة» العلوم الاجتماعية؛ أي: القلق الذي كان مصدره «حوار» التاريخ المقطوع مع العلوم الصرفة ـ مثل الفيزياء والرياضيات ـ التي أحدثت نظريات أينشتاين نوعاً من «إعادة صياغتها» فيما يتعلق بنسف الأفكار المتعلقة بالزمان والمكان اللذين كان المؤرخون يتحركون في مجالهما حتى ذلك الوقت. ويدعو لوموان إلى إعادة قراءة الحوارات التي دارت بين مؤسس «البنيوية» كلود

ليفـي ستروس والمـؤرخ فرناند بروديل منذ ثلاثينات القـرن الماضي لفهم عمق «المنعطف» الذي شرع به بروديل فيما يتعلق بفهم التاريخ.

إحـدى المقولات الأساسية التـي يؤكد عليها بروديل في سيرورة التاريخ هـي أن التبدلات العميقـة ـ المنعطفات ـ تتم خلال «المدى الطويل»، بحيث إنهـا تستغرق أجيالاً كاملة. يقول بروديل: «إن الهدف السري للتاريخ ودافعه العميـق ليس شـرح وتفسير ما هو معاصر». والمقولة الأساسية الأخرى التي يؤكـد عليهـا بروديل هي دور العوامـل الاقتصاديـة والاجتماعية في صياغة تاريخ المجتمعات وفي صياغة «قواعد الحضارات».

كتاب «قواعد الحضارات»

وليـس كتــاب «قواعـد لغة الحضــارات» سـوى إسهام مـن بروديل في تعليـم التاريـخ في الصفوف الثانوية. ولم يحـظَ بالصيت الذي نالته كتبه الأخرى مثل «المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني» (1949)، والحضــارة المادية والاقتصاد والرأسمالية (1979)، وهوية فرنسا (1986). ويعود ذلك إلى الطبيعـة المدرسية والبيداغوجية والتبسيطية لهذا الكتاب الـذي صدر لأول مـرة في عام 1963 تحت عنوان «العالم الراهن» ثم أعيد نشـره عـام 1987 تحـت عنـوان جديد هـو «قواعد لغـة الحضــارات»، بعد مراجعتـه في ضوء مستجدات الأحـداث العالمية ولجعله كذلك في متناول الجمهور العريض من القراء.

وينـدرج هذا الكتـاب ضمن مشروع تحويـر برامج تدريـس التاريخ في البكالوريـا الفرنسيـة، فـي خضـم إعـادة إعمار فرنسـا بعد الدمـار الذي خلّفتـه الحرب العالميـة الثانية، ومراجعـة كل الاستراتيجيـات الاقتصادية والسياسية والثقافية وكذلك التعليمية التي أدت مجتمعة إلى ما أسماه مارك

بلـوخ بـ«الهزيمة الغربيـة» عام 1940. وكان بروديل يقـف خلف إدراج العلوم الاجتماعيـة في برامـج البكالوريا عـام 1962، إلا أن أساتذة التعليم الثانوي عارضوا ذلك بدعوى أن ذلك التحوير غير مجدٍ، وأن كتاب بروديل «العالم الراهـن» صعب وناقـص من حيث التاريـخ الحدثي، واستطاعـوا بعد حملة شعـواء إلغـاء دراسـة الفضاءات الحضاريـة الكبرى مـن البكالوريا. وهكذا تغلبت الذهنية المحافظة على إرادة التجديد التي كانت تعج بقلب بروديل.

يحمل كتاب «قواعد لغة الحضارات» ـ الذي استطاع بروديل فيه التوفيق بيـن التبسيـط ومقتضيات العلم ـ بصمات رواج دراسـة الفضاءات الثقافية (Area Studies) التـي شاعـت فـي خمسينـات القرن الماضي فـي الولايات المتحـدة الأميركيـة، كمـا تأثـر بروديل بالمذهـب البنيوي، وخاصـة أفكار الفيلسـوف والأنثروبولوجي الفرنسي كلـود ليفي ستراوس، التي ترفض فكرة أفضلية حضارة على أخرى وتفندها.

لقـد درس بروديـل الحضارات بلغـة تأليفية عالية، ونـأى بنفسه عن الذهنيـة «المتمحورة حول الـذات الأوروبية» والاستعلاء الذي طبع كتابات المثقفين الغربيين عن العوالم الأخرى. كان مسكوناً بفكرة أن علم التاريخ هـو «العنصر الذي من دونه لا يمكن لأي وعـي وطني أن يتشكل، والوعي الوطنـي الـذي من دونه لا يمكن لأي ثقافة أصيلـة أو أي حضارة حقيقية أن تتشكل».

لقد أعمل بروديل تفكيره في موضوع الحضارات الإنسانية، وحاول إلقاء نظـرة تأخذ بعين الاعتبار الجوانب المادية للحضارات (البنى الاقتصادية) وكذلك الأديان والثقافات والأطر السياسية، وذلك على المدى الطويل. ونجد في ثنايا الكتاب أفكار بروديل ومفاهيمه المعروفة؛ لكنها ليست كلها مبلورة بشكل واضح؛ لأن المؤلف لم يكن قد بلغ بعدُ نضجَه الفكري الكامل. وتدور

هذه الأفكار حول الأهمية المحدودة للأحداث السياسية في التاريخ الإنساني، وحـول محدودية حرية الإنسان في صنع تاريخه، وحول قوة تأثير الجغرافيا وخاصـة البحـر. ومن أفكاره ضـرورة اعتماد «المدى الطويـل» للوقوف على معنـى الأحداث والظواهر التاريخية العميقة والرئيسة، وهو مفهوم مستوحى مـن الجغرافيا والماركسية. كما يؤمن بروديل بضرورة مقاربة الاقتصاديات العالمية بمفهوم الاقتصاد ـ العالم، وأهمية التثاقف بين الحضارات.

وعلـى الرغـم من مـرور عقود طويلـة على كتابتـه تكمـن أهمية كتاب بروديل في رؤيته للتاريخ كعملية شاملة تدخل فيها الجغرافيا والديموغرافيا والاقتصاد إلى جانب الحكومـات والجيوش والحروب والمناورات السياسية. هنـا لا يبقى التاريخ تسلسلَ عهود وحُكّام وحروب؛ بل يبدو أن هذه هي أقل الأشيـاء بروزاً، وقد لا تكون سـوى نتائج في الدورة الشاملة التي تلعب فيها الثقافة والاقتصاد والجغرافيا أدواراً محددة.

فكرة الأزمنة الثلاثة

ميّـز بروديـل بين ثلاثـة أزمنـة تاريخيـة: أولاً الزمن الجغرافـي؛ أي: التاريـخ شبه الثابت، المستقر، الذي لا يكاد الإحسـاس بـ «تقلصاته» يكون ممكناً، وهذا الزمن التاريخي يخص بالتحديد العلاقة مع البشر ومع الوسط المحيط.

أمـا الزمن الثانـي الاقتصـادي الاجتماعي فيخص التاريـخ «المتحرك ببطء»، ويقصد بـه بروديل الزمن الاجتماعي الذي يخص فعل المجموعات الإنسانية الضمني؛ أي: الذي يحدث في عمق المجتمعات بحيث لا يبدو منه الشيء الكثير على السطح.

وأخيـراً الزمن الثالث السياسي الذي يخـص التاريخ التقليدي الحدثي

«المتحـرك علـى السطح»؛ أي: الذي يعرف «أحداثـاً / منعطفات» في تاريخ المجتمعـات كنتيجـة للعمـل البطـيء للمجموعـات الاجتماعية علـى المدى الطويل. وهـذا التاريخ هو أكثر التواريخ تشويقاً وأكثرها غنى على المستوى الإنساني.

ولـم يكـن بروديل ينظر إلـى الرأسماليـة ـ التـي تمثل تعبيـراً أوروبياً صريحـاً عن حضـارة مادية بيـن القرنين الخامـس عشر والثامـن عشر ـ على أنهـا «أيديولوجيا»؛ بل كان يعدها «منظومة اقتصادية»، ولّدتها تدريجياً إستراتيجيات البحث عـن السلطـة، ولم يكن يرى ـ خلافـاً لماركس ـ أنهـا تعمـق التفـاوت بيـن البشـر؛ بـل رأى أن التفـاوت كان أكثر عمقاً فـي المجتمعات ما قبل الرأسمالية، وأثبت أن الاحتكار سمة أساسية من سمات الرأسمالية.

ليس ثمة تاريخ خاص بفرنسا، وإنما هناك تاريخ خاص بأوروبا.. وليس هناك تاريخ خاص بأوروبا، وإنما هناك تاريخ خاص بالعالم

فـي تقديمه للكتـاب، اعتبر الكاتب موريس أيمار أن بروديل حرص على إعادة التأكيد على قناعته الشديدة بضرورة بعث مشروع بيداغوجي حقيقي يفـرد للتاريـخ مكانة مركزية (من ينكر الدور العنيـف للتاريخ؟)، ويستعمله بصفته أداة متميزة لسبر أغوار العالم وتفسيره، أو بالأحرى تفسير الماضي والحاضـر جميعهما. ولم يتوقـف بروديل عن التكرار بـأن التاريخ التقليدي ـ السـرد المعتمد على كرونولوجيا دقيقة ـ هو الوحيد القادر على استقطاب اهتمـام التلاميـذ الصغـار الأطفـال بالمقارنة مـع الراشدين فـي الأقسام النهائية، وتمكينهم من التعرف الضروري على الزمن.

لقـد عرض بروديل في محاضرة له فـي ساوباولو في عام 1936 أفكاره الأساسيـة التي ظل يكررها خلال خمسيـن سنة لاحقة، والتي يرى فيها أنه

ليس ثمة سر لتحويل «الرواية المدرسية» إلى «رواية مغامرات» غير البساطة التي هي التمسك بما هو أساسي، وهي ليست «البساطة التي تشوّه الحقيقة، وتكوّن كالفراغ، وتتماهى مع الضحالة؛ وإنما البساطة التي هي الوضوح ونور الذكاء... النفاذ إلى ما يشكل محور أي حضارة..».

لقد طوّر بروديل تفكيره ووصل أوجه حول مقولة الحضارة نفسها، التي اكتشفها في المتوسط بصفتها «أولى الثوابت وأكثرها تعقيداً» بما تنطوي عليه من تناقضات؛ لأن للحضارات «مضامين أخوية وليبرالية، لكن هذه الحضارات هي في الآن نفسه مغلقة وإقصائية وعنيفة... ومسالمة... ولا تنقصها النزعة القتالية، وهي ذات ثبوتية مثيرة للاهتمام».

لقد تبنى بروديل مقولة مارك بلوخ أحياناً كثيرة وآخرها في مقدمة كتابه «هوية فرنسا» حيث قال: «ليس ثمة تاريخ خاص بفرنسا، وإنما هناك فقط تاريخ خاص بأوروبا... وليس هناك تاريخ خاص بأوروبا، وإنما هناك تاريخ خاص بالعالم».

تعريف الحضارة وتغيّرات اللغة

يقول بروديل: إنه سيكون من الشائق لو أمكن تعريف كلمة حضارة تعريفاً واضحاً وبسيطاً، مثلما نعرّف الخط المستقيم أو المثلث أو الجسم الكيميائي. لقد ظهرت كلمة حضارة Civilization في القرن الثامن عشر وهي كلمة اشتقت من Civilise ومن فعل Civiliser الفرنسيين وهما كلمتان موجودتان منذ أمد طويل ومستعملتان منذ القرن السادس عشر. وهي ظلّت حتى العام 1732 تستعمل بمعنى قانوني يشير إلى معنى «مدنية» عند الحديث عن قضية إجرامية؛ أي يقال: قضية مدنية. أما العبارة الحديثة التي تعني «الانتقال إلى الوضع المتحضر» فقد ظهرت متأخرة عام 1752

علـى لسان تورغو، ودخلت الكلمة رسمياً في نصّ مطبوع مع كتاب «مصنف حـول السكان» لميرابـو Mirabeau. ومن اللافت أن فولتير لم يستعمل تعبير «الحضارة» على الرغم من كونه الرجل الذي تصوّر هذه المقولة في رسالته حول «العادات وروح الأمم»(1756)، وأنجز صيغة أولى لتاريخ عام للحضارة. إن كلمـة حضارة بمعناها الجديد مناقضة لكلمة «برابرية»، التي يقصد بها الشعوب المتوحشة والبدائية مقابل الشعوب المتحضرة.

كانت كلمة «حضارة» موجودة في إنجلترا منذ 1772 بمعنى Civilization، وهـي الكلمة التي تفوقت على Civility التي كانت قائمة منذ زمن بعيد، أما كلمة Zivilization فقد استقرت من دون عناء في ألمانيا جنباً إلى جنب مع الكلمة القديمة Bildung.

لقـد كانت الكلمة الجديدة مصحوبة بتطوافها حول أوروبا بكلمة قديمة هي (ثقافة)، وظلت كلمة (ثقافة) لفترة طويلة مرادفة لكلمة حضارة، ففي جامعـة برلين عـام 1830 كان الفيلسوف هيغل يستعمـل الكلمتين وكأن لهما المعنى نفسه؛ لكن لاحقاً ظهرت الحاجة للتفريق بينهما.

إن مقولة حضارة مزدوجة تعني في الآن نفسه قيماً أخلاقية وقيماً مادية؛ إذ ميّز كارل ماركس بين البنى التحتية (المادية) والبنى الفوقية (الروحية)، والأخيـرة تخضع بشـدة للأولى. وقد قال شارل سانيوبوس: إن الحضارة هي الطرقـات والموانئ والمرافـئ، فيما رأى مارسيل مـوس أن الحضارة ليست الـروح فحسب؛ بل هـي كل المكتسبات البشرية، بينمـا اعتبر المؤرخ أوجين كافينياك أنها «الحد الأدنى من العلم والفن والنظام والفضائل..».

إذاً، الحضـارة هـي طابقان، يقول بروديل: و«من هنا جاءت الرغبة في التمييـز بين الكلمتيـن ثقافة وحضارة، على أسـاس أن واحدة منهما تتكفل بنبـل الروحانيـات والثانيـة بتفاهـة الماديات، لكـن ما هو مأسـاوي هو أن

لا أحـد استقر رأيه على هذا التمييز الـذي سيظل متغيّراً حسب البلدان أو في البلد نفسه بحسب الأزمنة والبلدان».

فـي ألمانيا أفضى التمييـز إلى إيلاء نوع من الأولوية إلى ثقافة Kultur وإلـى الاستنقاص الواعي من كلمة حضارة، أما بالنسبة إلى الأستاذ تونيس والفـرد فيبـر، فإن (حضـارة) ليست سـوى مجموعة من المعـارف التقنية والممارسـات، ومجموعة من الوسائل لتغييـر الطبيعة. أما الثقافة فهي على العكـس من ذلك، فهي المبـادئ القيمية والقيم والمثل، أو باختصار الروح. وبحسـب بروديل، فإن هـذه المواقف تفسّر الفكرة التي تبدو غريبة بالنسبة لأي فرنسي والصادرة عن المؤرخ الألماني فيلهلم مومسن بقوله: «إن واجب أي إنسـان اليـوم (عام 1951) هـو ألا تحطم الحضـارة الثقافة، وألا تحطم التقنية الكائن البشري».

وتثيـر هـذه الجملـة الغرابـة بالنسبة لبروديـل؛ لأن كلمـة حضارة هي السائـدة في فرنسـا وإنجلترا والولايـات المتحدة؛ بينما لكلمـة الثقافة في بولونيـا وروسيـا وألمانيا القول الفصـل. ففي فرنسا، لا تظهـر كلمة ثقافة بمظهـر قوي إلا عندما يتعلق الأمـر بالإشارة إلى «كل شكل شخصي للحياة الروحيـة»، بحسـب هنري مـارو، وبول فاليري الـذي يقول: إننـا نتكلم عن الثقافـة لا عـن الحضارة، على أسـاس أن الحضارة تعنـي ـ أساساً ـ القيم الجماعية.

ويـرى بروديل أننا أمام فيض مـن التعقيدات؛ إذ بحث الأنثروبولوجيون الأنغلـو ـ سكسكونيـون عن كلمـة مغايرة لكلمة الحضارة كـي يطبقوها على المجتمعات البدائية؛ إذ كانت اللغة الإنجليزية تستخدم كلمة حضارة للإشارة إلـى المجتمعات الحديثة. فقالوا: إن هناك ثقافات بدائية تقابلها حضارات المجتمعـات المتطوّرة، وتغيب كل التعقيدات بالنسبة إلى نعت «ثقافي» الذي

تـم ابتـكاره في ألمانيا نحو 1850، وهو نعت يعني كل المضمون الذي تنطوي عليـه كلمتـا حضـارة وثقافة، فهو لم يجـد نعتاً ينافسه، وهـو الوحيد الذي يخدم نفسه بنفسه.

من حضارة إلى حضارات

بحـدود عـام 1810، انتقلت كلمة حضارة التي ظلـت بصيغة المفرد إلى صيغة الجمع، وأصبحت «تنزع إلى اتخاذ معنى جديد مغاير تماماً، هو مجموع السمـات التي تتصف بها الحياة الجماعيـة لمجموعة بشرية أو لعصر». إن الطرح الواضـح لمشكلة الحضارة (بصيغة المفرد) أو الحضارات (بصيغة الجمع) معناه الاصطدام بتعقيد جديد ليس بالهيّن. فصيغة الجمع هي التي تفـرض نفسهـا بالنسبة إلى ذهنية رجل من القرن العشرين؛ لأنها أكثر من صيغـة المفرد مرتبطة مباشرة بتجاربنا الشخصية. فالمتاحف ـ على سبيل المثال ـ ترحل بنا عبر الزمن إلى عمق حضارات بائدة.

إن استعمال صيغة الجمع في تعريف الحضارة هو نتيجة اختفاء مفهوم معيّـن والاندثـار التدريجـي للفكرة الخاصـة بالقرن الثامـن عشر، والتي مفادهـا أن الحضـارة مرادفة للتقـدم في حدّ ذاته، وهـي مقصورة على بعـض الشعـوب المحظوظة أو مجموعات «النخبـة»، ولحسن الحظ، يقول بروديـل: تخلـص القرن العشريـن من جملة من الأحـكام القيمية، بحيث يصعـب تحديـد أي الحضـارات أفضل، ووفق أي مقاييـس. وهكذا فقدت الحضـارة ـ بصيغـة المفرد ـ بريقها ولم تعد ـ علـى غرار القرن الثامن عشر ـ أعلى قيمة أخلاقية وثقافية وأرقاها. وأصبحت اللغة الحديثة تشعر بشيء من الحرج عندما تستعمل كلمة حضارة بمعناها القديم الذي يعني الامتياز والتفوّق البشري.

الحضارات فضاءات

يقول بروديل: «ليس بالإمكان تعريف لفظ الحضارة إلا بتضافر إضافات كل علوم الإنسان بما فيها التاريخ». ويحاول بروديل تعريف مفهوم الحضارة بالرجـوع تباعـاً إلـى الجغرافيـا وعلـم الاجتمـاع والاقتصاد وعلـم النفس الجماعـي، «فهـي أربع سفرات» إلى أراضٍ غيـر متشابهة أبداً، لكن الأجوبة المتحصل عليها ستكون متقاربة فيما بينها على الرغم مما يبدو عكس ذلك من الوهلة الأولى.

يمكـن تحديد الحضـارات ـ مهما كان حجمها سـواء أكانت عظيمة أم ضحلـة ـ علـى خريطة، ويرتبـط جزء رئيس مـن حقيقتهـا بمعوقات مكان استقرارهـا أو بمزايـاه، علمـاً بـأن هذا المستقـر قد صاغـه الإنسان منذ قـرون وربما منذ آلاف السنين. والحديـث عن الحضارة معناه الحديث عن فضاءات وأراضٍ وتضاريس ومناخات ونباتات وأجناس حيوانية ومنافع معطاة أو مكتسبة.

وبالنسبـة للمنافـع المعطاة فـكل حضارة هـي نتاج امتيـازات مباشرة استغلهـا الإنسـان باكراً، وهكـذا فقد ازدهرت في فجـر التاريخ الحضارات المائيـة للعالـم القديـم علـى ضفـاف الأنهـار، والحضـارات البحرية على شواطـئ المحيطـات والبحار. يتساءل بروديل: أو ليـس أغلب العالم الغربي الحالي متحلقاً حول المحيط الأطلسي، كما كان العالم الروماني متحلقاً في الماضـي حـول المتوسط؟ ويقول: «إن هذه الحـالات الكلاسيكية تكشف في المقـام الأول أولوية التبادل، فليس ثمـة حضارة قادرة على العيش من دون حركيـة خاصة، فكل واحدة تغتنـي بفضل التبادل والمصادمات التي يتسبب بهـا الجوار المثمر، فلا يمكـن أن نفهم الإسلام من دون حركة قوافله عبر تلـك «البحـار الشاسعة بـلا ماء»، تلك الصحـارى والسُّهُـوب الموجودة في

فضائـه، ولا يُفهـم الإسلام مـن دون تحركاته البحرية فـي المتوسط وعبر المحيط الهندي حتى مالاكا والصين».

يطـرح بروديل سؤالاً عن نجاحات الحضـارات، ولماذا حققها بشر ولم يحققهـا آخرون؟ ولماذا تحققت في منطقـة دون أخرى، وذلك على امتداد أجيـال؟ لقـد قدَّم أرنولـد توينبي نظرية مغرية في هـذا المجال، فوراء كل نجاح بشري يوجد دائماً تحدٍّ واستجابة، فالطبيعة تطرح نفسها على البشر بصفتهـا صعوبـة لا بد من التغلب عليها، وإذا ما رفع الإنسان التحدي، فإن تصديـه يخلق القواعد نفسهـا للحضارة. لكن إذا دفعنا هـذه النظرية إلى مداها الأخير، فهل يجب أن نستنتج أن تحدي الطبيعة كلما كان كبيراً، كان تصدي البشر لها أقوى؟ يشكك بروديل في ذلك مشيراً إلى أن إنسان القرن العشريـن المتحضر قد تحدى الصحاري والمناطـق القطبية أو الاستوائية؛ لكنـه علـى الرغم من المصالـح التي لا يشك فـي أهميتها أحـد ـ الذهب والنفط ـ فإنه لم يتمكن من الانتشار فيها وخلق حضارات حقيقية فيها.

المجال الثقافي

إن المجـال الثقافـي هو حسب لغـة الأنثروبولوجيين فضـاء تسيطر في صلبه بعـض السمات الثقافية المتضافرة، فهناك بعـض المجالات الثقافية التي تشترك فيما بينها ضمن تجمعات كبرى حسب بعض السمات المشتركة للمجموعـة التي تميّزهـا عن بعض التجمعـات الكبرى الأخـرى. وطَبَعِيّ أن يتأسـى الجغرافيـون والمؤرخـون بالأثروبولوجييـن فيتحدثـوا عـن مجالات ثقافية، يقصدون حضارات متطورة ومتعددة هذه المرة، هي فضاءات يمكن تفكيكهـا كل مرة إلـى سلسلة من الأقاليم الخاصة، وهـذا التفكيك الممكن يبقـى أساسيـاً، وخاصـة عند الحضارات الكبـرى التي تتجـزأ بانتظام إلى وحدات ضيقة المجال.

إن الحضارة المسماة بالحضارة «الغربية» هي في الوقت نفسه «الحضارة الأميركية» للولايات المتحدة الأميركية وحضارة أميركا اللاتينية، وهي أيضاً روسيـا وبطبيعـة الحـال أوروبا. وأوروبـا نفسها هي سلسلة مـن الحضارات البولونيـة والألمانيـة والإيطالية والإنجليزية والفرنسية إلـخ.. ويدعو بروديل كذلـك إلـى عدم إغفال كون هـذه الحضارات القومية تنطـوي بدورها على «حضارات» أصغر: الإيكوس، إيرلندا، كاتالونيا، صقلية، بلاد الباسك... ولا ننسى أن تلك التقسيمات والفيسفاء هي ذات المربعات المختلفة الألوان هي سمات ثابتة أو شبه ثابتة. إن ثبات هذه الفضاءات المأهولة للغاية والحدود التي تحيط بها لا يعني أن تلك الحدود تمثل حاجزاً أمام التنقلات الكبيرة للممتلكات الثقافية التي لا تنفك تمر عبرها، فكل حضارة تصدر ممتلكاتها الثقافيـة وتتلقـى في المقابل ممتلكات غيرها، ويقصـد بالممتلكات الثقافية هنـا الصـادرات من آلات وسلـع ومنتجات إلـى العادات والأفـكار والفنون، خصوصاً مع عدوى الحضارة الصناعية.

الحضارات مجتمعات واقتصاديات

لا وجود لحضارات من دون مجتمعات تحتضنها وتنشطها بفعل توتراتها وتطورها. ومن هنا يأتي سؤال بروديل: هل من الضروري خلق كلمة حضارة ثم الرقي بها على المستوى العلمي لو كانت مرادفاً لكلمة مجتمع؟ ألا يستعمل توينبـي كلمة مجتمع Society مكان كلمة حضارة Civilization وعوضها؟ ألم يظهـر لمارسيل موس أن «لفـظ الحضارة هو بالتأكيد أقل وضوحاً من لفظ مجتمع الذي تعنيه الحضارة ضمنياً»؟

لا يمكـن أبداً فصل المجتمع عن الحضـارة والعكس صحيح، واللفظان يتعلقـان بالشيء نفسه، وكما يقول كلود ليفـي ستراوس: «إنهما لا يتطابقان مع أشياء متباينة؛ وإنما مع وجهتي نظر متكاملتين حول الشيء نفسه الذي

يمكـن توصيفه بصفة ملائمة إما بواسطة الكلمـة الأولى أو بواسطة الكلمة الثانية بارتباط المعنى الذي نتبناه».

إن الحضارة الغربية التي نعيش فيها هي رهينة «الحضارة الصناعية» التي تنشطهـا، ويكون من اليسير توصيفها عند توصيـف هذا المجتمع نفسه؛ أي: توصيف مجموعاته البشرية وتوتراته وقيمه الثقافية والأخلاقية ومُثُله وحركاته المتواتـرة وأذواقـه... إلخ؛ أي: باختصار توصيف النـاس الذين يحملون راية هـذه الحضـارة ويمرّرونها إلى غيرهـم. وإذا ما تحـرك المجتمع الضمنـي أو تغيّر، فإن الحضارة تتحرك وتتغيّـر. فكما يقول لوسيان غولدمان فإن كل حضارة تستمد إضاءاتها الأساسية من الموقف الذي تتبناه إزاء العالم، لكن هذا الموقف لا يعدو أن يكـون في كل مرة انعكاسـاً أو نتيجة للتوترات الاجتماعيـة المهيمنـة، فالحضـارة كالمرآة تعمل وكأنها الآلة التي تسجّل تلك التوترات والمجهودات.

فللحضارة إيقاعاتها وهي تظهر بمظهر التاريخ ذي الكسوفات التي يقسّمها بروديل إلى قطع متعاقبة وشرائح شبه متنافرة

ويـرى بروديـل أن التماهـي بيـن الحضـارات والمجتمعـات يقـف وراء أطروحـات كلود ليفـي سـتـراوس والأنثروبولوجييـن المتعلقـة بالتفريق بين الثقافات والحضارات، وبين المجتمعات البدائية والحديثة.

إن المظهـر الخارجي الأقوى فيما يتعلق بالفروق بين الثقافات والحضارات هـو حضور المدن أو غيابها. فالمدينة تزدهـر إذا تعلق الأمر بالحضارة؛ لكنها تظـل جنينية إذا تعلق الأمر بالثقافات. فحتى الحضارات والمجتمعات المتطورة تفتـرض وجود مجتمعات مبتدئـة داخل حدودها نفسها، وهـو ما يعطي بروديل مثـالاً عليـه الحوار المهم المستمر بين المدن والأرياف. فالتطور لا يَمَسُّ ـ على التساوي ـ جميع الشرائح في أي مجتمع، وتوجد فيه جزر صغيرة من التخلّف.

ويـرى بروديل أنه نظراً إلـى العلاقة المتينة بيـن الحضارة والمجتمع، توجد فائدة في التصرّف كعالم الاجتماع كلما تم التطرق إلى التاريخ الطويل للحضـارات؛ لكنه بصفته مؤرخاً سيقتصر على عدم الخلط بين الحضارات والمجتمعـات، فالحضـارة تغطـي وتعني ضمنـاً فضـاءات كرونولوجية أكثر اتساعاً من أية حقيقة اجتماعية، فهي تتغيّر بسرعة أقل من المجتمعات التي تحتضنها أو تفرزها.

ووراء كل مجتمـع وكل حضـارة نجـد معطيـات اقتصاديـة وتكنولوجية وبيولوجيـة وديموغرافيـة، وتضغـط الظـروف المادية والبيولوجيـة بكل قوة علـى مصير الحضارات: تزايدُ عدد البشر أو انخفاضه، الصحة الجيدة أو الصحـة المتدهورة، الازدهار الاقتصادي أو التقنـي أو تراجُعُه. كلها أشياء تنعكس على البنيان الاجتماعي، فالاقتصاد السياسي بالمعنى الواسع للكلمة هو دراسة كل هذه المشاكل الضخمة.

ويشيـر بروديـل إلى أهمية عدد السـكان ومحورية الإنسـان في الحضارة كونـه الأداة الوحيـدة والصانع والمحرك الوحيد لهـا. ومبدئياً وعملياً فإن كل زيادة ديموغرافية تيسر ازدهار الحضارات، كما أن الحياة الاقتصادية متقلبة، بعضهـا يأخذ شكل تقلبـات قصيرة وبعضها طويلة. وسـواء اتخذ التقلب هذا الاتجـاه أو ذاك، فـإن الحيـاة الاقتصادية تفـرز الفائض دائمـاً، وإنفاق تلك الفوائض هو أحد الشروط الضرورية لترف الحضارات ولبعض أشكال الفن.

الحضارات ذهنيات جماعية واستمراريات

يوجد في كل عصر تصوّر معيّن للعالم وللأشياء وذهنية جماعية معيّنة تنشّط كل كتلة المجتمع وتخترقها، وهذه الذهنية التي تملي المواقف، وتوجّه الاختيارات، وتعمّق الأفكار الماقبلية وتغيّر وجهة حركات المجتمع، وهي أمر حضاري بأتم معنى الكلمة. فهي ليست حوادث أو ظروفاً تاريخية واجتماعية

لعصر معيّن، وإنما هي ثمرة إرث قديم من المعتقدات والخوف والحيرة القديمة اللاواعية في أغلب الأحيان. إنها عدوى كبيرة، بذورها غارقة في الماضي وتتناقلها الأجيال. وردود فعل مجتمع على أحداث الساعة لا تخضع إلا بصفة محدودة للمنطق أو حتى المصلحة الأنانية، بل هي تخضع بصورة رئيسة لتلك الهيمنة المبهمة، بما لها من رموز صعبة التفكيك في الغالب، وهي نابعة من اللاوعي الجماعي. إن هذه البنى السيكولوجية والقيم الأساسية هي بالتأكيد ما لا تستطيع الحضارات تمريره بسهولة إلى غيرها، وما يعزلها ويميّزها بعضها عن بعض.

إن الدين هنا هو السمة الأكثر قوة؛ إذ يتموقع في قلب الحضارات، وهو ماضيها وحاضرها. حتى العالم الغربي الذي تناسى جذوره المسيحية، فإن ثمة تعايشاً بين الدين والعلمانية والعلم، أو ثمة حوارات لم تنقطع أبداً فيما بينها، خلافاً لما توحي به المظاهر. يقول بروديل: إن المسيحية فرضت نفسها بصفتها حقيقة أساسية للحياة الغربية، وتركت بصماتها حتى على الملاحدة، فالقواعد الأخلاقية والمواقف من الحياة والموت وقيمة العمل ودور المرأة والطفل كلها سلوكيات تبدو أن لا علاقة لها بالشعور المسيحي؛ لكنها على الرغم من ذلك متولدة عنه. لكن فرادة الحضارة الغربية في رأيه هي في أن نزعة الحضارة الغربية لا تزال منذ تطوّر الفكر الإغريقي هي الارتقاء إلى العقلانية.

من الضروري إدخال التاريخ وقياساته وتفسيراته الأساسية في ذلك الحوار المعقد عن الحضارات، فليس ثمة حضارة راهنة يمكن فهمها فهماً حقيقياً من دون معرفة المسارات التي تم قطعها والقيم القديمة والتجارب المعيشة. فكل حضارة هي ماضٍ وماضٍ معيّن لا يزال حياً، وتبعاً لذلك فإن تاريخ أي حضارة هو البحث ـ من بين المعطيات القديمة ـ عن تلك التي لا تزال فاعلة إلى اليوم.

إن كل حضــارة تعبّر عن نفسها فــي المقام الأول بسلسلة من التجلّيات اليسيرة الفهم: مسرحية، معرض رسم، رواج كتاب أو فلسفة، موضة لباس أو اكتشاف علمي أو تقني، وكلها أحداث تبدو مستقلة بعضها عن بعض. وهذه الوقائع الحضارية لا تعمّر إلا قليلاً، وهي مجبولة على التحوّلات العنيدة.

ويعبّــر هــذا الطابع المتغيــر عن نفســه بواسطة التتابع نفســه للعصور الأدبيــة أو الفنية أو الفلسفية، وهــي كلها حلقات زمنية منغلقة على نفسها، وتوجــد سياقات ثقافية على غــرار السياقات الاقتصادية؛ أي: تقلبات طويلة أو مفاجئــة، وهي تتابع فــي أغلب الأحيان مع التعــارض العنيف. فكل شيء يتغيّر من عصر إلى آخر، ولكل عصر ألوانه وموضوعاته وحركاته اللاواعية. فللحضــارة إيقاعاتها وهي تظهر بمظهر التاريخ ذي الكسوفات التي يقسّمها بروديل إلى قطع متعاقبة وشرائح شبه متنافرة.

إن كل حلقــة زمنية تنقسم إلــى سلسلة من الأفعال والحركات والأدوار، فالحضــارات فــي نهاية المطاف هــي بشر؛ أي: ما لا يحصــى من أصناف التمشــي والفعل والتحمس والالتزام التــي يتعاطاها البشر، وكذلك الانقلاب في المواقف أيضاً. لكن ضمن هذه السلسلة من الأفعال والإنجازات والسير الذاتيــة، توجد منعرجات أو مفاصل تاريخية تعكسها أحداث أو أبطال، على غرار اكتشاف قانون الجاذبية من قبل نيوتن عام 1687، فقد كان حدثاً بالغ الأهمية، وكذلك عرض مسرحية «لو سيد» Le Cid الفرنسية التي كتبها كورناي عام 1636. تساعد الحلقات الزمنية المتتابعة على فهم المكانة الخاصة التي تحتلها بعض الأحداث والأبطال الاستثنائيين في تاريخ الحضارات.

تفاعل الحضارات

تنفر أي حضارة عادة من تبنّي مُلك ثقافي قد يسيء إلى أحد هياكلها العميقــة، ويعــدّ رفض الاستعــارة هذا وتلك العــداوات الخفيــة أشياء نادرة

نسبياً؛ لكنها تنفذ إلى قلب هذه الحضارة. يقول بروديل: «في كل يوم، تستعير كل حضارة أشياء من جاراتها، حتى لو وصل الأمر بها إلى «إعادة تأويل» ما تأخذه عنها وهضمه. وتبدو كل حضارة من الوهلة الأولى وكأنها محط بضائع لا تنفك تتلقى الأخلاط من الأمتعة وترسل أخلاطاً أخرى، إلا أنه يمكن لحضارة أن تقع مراودتها، فترفض بعناد تلك الإضافة الخارجية، وقد نبهنا إلى ذلك: لا توجد حضارة جديرة بهذا الاسم لا تمارس هذه المواقف المزدرية والرافضة. وفي كل مرة يكون الرفض تتويجاً لسلسلة طويلة من التردد والتجارب يكون محصلة تفكير معمّق وقرار بطيء، ويتخذ دائماً أهمية قصوى».

إن هذا النشاط ـ المتمثل في الاستقبال أو الرفض الذي تمارسه حضارة إزاء الحضارات الخارجية الأخرى ـ تمارسه أيضاً ببطء حيال نفسها. وهذا الاختيار هو دائماً اختيار يكون الوعي به محدوداً أو منعدماً، لكن بفضل ذلك الاختيار، تتغيّر الحضارة تدريجياً «بالتخلي» (Se partager) عن جزء من ماضيها، كما يسميّه ميشال فوكو.

يقول بروديل ـ متأثراً بفوكو أو ربما نقلاً عنه ـ: «إن أي حضارة تكشف حقيقتها الشخصية عندما تتخلى عما يعكّر مزاجها من ظلام الأراضي المتاخمة لها، وهي الأراضي المعتبرة أجنبية، وتاريخها هو تنقية شخصيتها الجماعية عبر القرون، تلك الشخصية التي تظل تتأرجح ـ مثل أي شخصية فردية ـ بين مصير واعٍ وواضح ومصير غامض ولا واعٍ، يعمل بصفته قاعدة ودافعاً أساسياً للآخر؛ لكن من دون أن يعلن عن نفسه دائماً».

ومن الأمثلة التي يقدمها عن عمليات «التخلي» أو «شبه التخلي»: تخلي العالم الغربي عن الموت المسيحي كما تصوّره العصر الوسيط؛ أي: مجرد انتقال الكائن المنفي إلى الأرض إلى الحياة الحقيقية في الآخر. لقد أصبح

الموت في القرن الخامس عشر «إنسانياً»، وأصبح يمثل المحنة القصوى للإنسان بصفته أمراً فظيعاً يسبب تحلل الجسد. وقد وجد الإنسان في هذا المفهوم الجديد للموت مفهوماً جديداً لحياة اكتسبت من جديد معناها وقيمتها الإنسانية في نظره. وقد زال ذلك النوع من الهوس بالموت في القرن التالي ـ السادس عشر ـ الذي كان قرن فرحة الحياة.

لم تكن العلاقة بين الحضارات دوماً سلمية، فكل حضارة لها خياراتها الحرة، وظلت العلاقات العنيفة بينها هي القاعدة في الأغلب، وكانت علاقات مأساوية وعديمة الفائدة على المدى الطويل.

ويرى بروديل أن الحضارات استمراريات واستمراريات تاريخية لا تنتهي. وهكذا فإن الحضارة هي الأطول من بين كل التواريخ الطويلة، لكن المؤرخ لا يكتشف هذه الحقيقة مباشرة؛ إذ هي لا تبرز إلا عقب ملاحظات متتابعة، فالذي يتسلق تتسع رؤيته تاريخياً.

الأزمنة المختلفة للتاريخ

يشتغل التاريخ وفق درجات ووحدات قياسية مختلفة في الأعم الأغلب، سواء من يوم إلى آخر، أو من سنة إلى أخرى، أو على مدار عشرات السنوات، أو على مدى قرون بأكملها.

والمؤرخ يشتغل ـ بحسب بروديل ـ على ثلاثة مستويات على الأقل هي:

مستوى أول: هو مستوى التاريخ التقليدي والسرد المعتاد الذي ينتقل بسرعة من حدث إلى الحدث التالي، مثلما يفعل الصحافي، وهكذا يتم التقاط ألف صورة حية، فيتشكل منها تاريخ متعدد الألوان، وغني بالتقلبات مثل رواية نتعلق بها؛ لكن هذا التاريخ الذي يطويه النسيان يتركنا عاجزين عن التقييم أو الفهم.

مستوى ثانٍ: يعكس حلقات ينظر إليها بصفتها وحدات قائمة الذات: الرومانطيقية، الثورة الفرنسية، الثورة الصناعية، الحرب العالمية الثانية. الوحدة القياسية هذه المرة هي عشر سنوات أو عشرون سنة أو خمسون سنة، وبسبب هذه الفترات أو الحلقات أو الأطوار تجري مقارنة الأحداث بعضها ببعض، وتؤول وتقدم لها تفسيرات.

مستوى ثالث: يتجاوز هذا المستوى هذه الأحداث الطويلة، ولا يبقي إلا على الحركات التي تدوم قرناً أو قروناً عدة، فهي تطرح تاريخاً تتسم فيه كل حركة بالبطء، وتغطي فضاءات زمنية كبيرة، وتاريخاً لا يمكن اختراقه إلا بقفزة كبيرة جداً. فالثورة الفرنسية ليست سوى لحظة أساسية بالتأكيد من ذلك التاريخ الطويل للمصير الثوري الليبرالي والعنيف للعالم الغربي، وفولتير مجرد مرحلة بسيطة من تطوّر الفكر الحر.

إن الحضارات تكشف عن عمرها الطويل أو استمراريتها وهياكلها شبه الغامضة لكنها الأساسية، وذلك بقطع النظر عن الحوادث والتقلبات التي لوّنت مصيرها وتركت عليها بصماتها. وفي نظر بروديل ليست الحضارة إذاً اقتصاداً معيّناً أو مجتمعاً معيّناً؛ وإنما ما استطاع من بين سلسلة الاقتصاديات وسلسلة المجتمعات التشبث بالحياة والخضوع بصعوبة وببطء للتأثيرات. ولا يمكن النيل من حضارة إلا على امتداد زمن طويل، وذلك بالإمساك بالحبل الذي لا يمكن أن تنتهي من حلّه؛ أي: ما حافظت عليه مجموعة من البشر، ومرّرته لغيرها من جيل إلى آخر بصفة ملكيتها الأكثر قيمة، وذلك من خلال تاريخ متقلب وعاصف في الأعم الأغلب.

إن تاريخ الحضارات هو التاريخ كله؛ ولكنْ منظور إليه من زاوية معيّنة، ومندرج ضمن أوسع فضاء كرونولوجي ممكن، ويكون ملائماً لانسجام تاريخي واجتماعي معيّن. وكل تاريخ يكلّف نفسه عناء التفسير العام عليه

العـودة الدائمة إلى الواقع الملمـوس، وإلى الأرقام والخرائط والكرونولوجيا الدقيقة؛ أي: إلى عمليات التثبت. ومن الأسلم التعلّق ـ لفهم معنى حضارة ـ لا بقواعد لغة الحضارات؛ وإنما وبشكل خاص بدراسة الحالات الملموسة.

الإسلام والعالم الإسلامي

فـي الجزء الثاني من الكتـاب يستعرض بروديل أهـم حضارات العالم غيـر الأوروبية بدءاً بالإسـلام، فالقارة السوداء، فالصيـن، فالهند، فالهند الصينيـة، فاليابان. وفـي الجزء الثالث يتناول الحضـارات الأوروبية ابتداءً بأوروبـا، فأميـركا بشقيها الشمالي والجنوبي، ثم يخصـص فصلاً مستقلاً للعالـم الإنجليـزي ومستعمراته فـي أنحاء العالم، ثم يخصّص روسيا بفصل مستقـل. وفي كل هذه الفصول هناك استحضـار للتاريخ السحيق والحاضر الراهن وهموم المستقبل لكل حضارة على حدة.

وفي الجزء المتعلق بالإسلام هناك أربعة فصول: الفصل الأول يتحدث عـن «ما يعلمنا التاريخ». والفصل الثاني يتحدث عن «ما تعلمنا الجغرافيا». وفي الفصل الثالث يتناول بروديل «عظمة الإسلام وانكفاءه». الفصل الرابع يبحث في «الإسلام وانبعاثه الراهن».

في الفصول الخاصة بالعالم الإسلامي ـ على غرار بقية فصول الكتاب ـ ليس هناك تسلسل زمني لفتوحات أو غزوات أو قيام دولة وسقوط أخرى؛ إذ يأخذ بروديل القارئ في رحلة مشوقة إلى تاريخ كل حضارة على حدة ضمن سياقاتها التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية بأسلوب إبداعي في كتابة التاريخ.

يقول بروديل: «تستغرق الحضارات زمناً طويلاً لكي تولد وتهيئ مستقرها وتنهض، والاعتقاد بأن الإسلام ولد في ظرف سنوات معدودات مع (النبي)

محمد ﷺ هو اعتقاد صحيح جداً؛ لكنه في الوقت نفسه غير صحيح، وفهم هذا الأمر صعب. لقد ولدت المسيحية نفسها مع المسيح وقبل المسيح بكثير، ومن دون محمد والمسيح لم يكن لتوجد لا المسيحية ولا الإسلام، إلا أن هذين الدينين الجديدين كانا قد اندمجا في جسم الحضارات القائمة قبلهما، وأصبحا يمثلان روحها، وقد أسعفهما الحظ منذ البداية، فتلقيا إرثاً غنياً وماضياً وحاضراً بأكمله ومستقبلاً أيضاً».

فعلى غرار المسيحية التي ورثت الإمبراطورية الرومانية وواصلتها، فقد انتصب الإسلام في بداياته في الشرق الأدنى الذي يعدّ أقدم «مفترق طرق» للبشر والشعوب المتحضرة وربما الأقدم للعالم، وهذا أمر له نتيجة هائلة، وهي أن الحضارة الإسلامية قد تبنّت لحسابها الخاص واجبات قديمة تفرضها الجغرافيا السياسية، وأشكالاً مدينية، ومؤسسات وعادات وقواعد وطرق قديمة من الاعتقاد والعيش.

لم تكن العلاقة بين الحضارات دوماً سلمية، فكل حضارة لها خياراتها الحرة، وظلت العلاقات العنيفة بينها هي القاعدة في الأغلب

ففي الشرق الأدنى العنيد ـ المعارض للحضور الإغريقي والمعتنق للمسيحية، والذي كانت تعصف به القلاقل الدينية المتواصلة والعنيفة ـ وجدت الغزوات العربية الأولى (634ـ642م) موطئين مباشرين: سوريا (632م) ومصر (634م) اللتين استقبلتا الدين الجديد، وانضمت لهما فارس (642م) بسرعة غير متوقعة. واحتل الفاتحون العرب بسرعة الشرق الأدنى بأكمله، وتجاوزوا حدوده كثيراً من جهة الغرب باستثناء آسيا الصغرى الجبلية التي دافعت عنها بيزنطة وحمتها.

لقد شيّد الإسلام ديناً بفضل القرآن والأحاديث النبوية وأفعال النبي، وهو دين اتّسم بالبساطة، ظهر على هامش الجزيرة العربية التي كانت

بدائيـة، بحسـب بروديل. ووضعـت جزيرة العـرب البدوية وقتهـا المحاربة الاستثنائيـة في خدمة الإسلام. ويرى بروديـل أن دور القبائل العربية يلفت الأنظـار إلـى الطريقة التي دعم بها الإسلام، هـذه الحضارة التي ستصبح قريبـة متأنقـة جـداً، «بواسطتها تباعـاً كل نجاحاته تقريبـاً بالاعتماد على القوى الحيّة لتلك «الثقافات» المحاربة وتلك الشعوب البدائية التي استوعبها في كل مرة وأدخلها إلى الحضارة».

ما تعلّمنا الجغرافيا

يمســح الإسلام سلسلة من الفضاءات المترابطة فيما بينها، والخاضعة في تخومها لتغيّرات حادة جداً؛ لذلك فإن تاريخ الإسلام ـ في رأي بروديل ـ ليـس تاريخاً هادئاً ولم يكن كذلك، لكن تلك التغيّرات تظل نسبية؛ إذ تمتع المســرح الإسلامــي الشاسع إجمالاً باستقرار ثابت، فهـو يبدو وكأنه سلسلة مـن الحقائق والتغيّرات. إن مناطق الإسلام اليـوم التي سيطر عليها دائماً ومنذ زمن بعيد تظل شاسعة، وهي ليست دائماً غنية، وهي تمتد من المغرب الأقصى والصحراء الأطلسيـة إلى الصين والجزر الأندونيسية والفلبين، أو من داكار إلى جاكرتا.

يقـول بروديـل: إن الكاتـب (أسد باي) محق عندما قـال: «إن الإسلام هـو الصحــراء»؛ لكـن هـذه الصحــراء ـ أو بالأحــرى هـذه المجموعة من الصحــاري ـ تقـع من جهة بيـن ملاحتين وبين امتدادين مـن الماء المالح بالمتوسط والمحيط الهندي، ومن جهة أخرى بين ثلاث كتل كثيفة إلى حد ما، الشرق الأوسط، وأوروبا، وأفريقيا السوداء. إن الإسلام هو قبل كل شيء «قارة انتقالية» تربط بين تلك الفضاءات الواسعة.

لقـد كان الإسلام ـ الحضــارة التي تفتقر إلى البشــر ـ مجبراً بالأمس علـى توظيف البشر الذين يجدهم في متنــاول يديه، وكان الافتقار المزمن

للبشـر شكلاً من أشـكال فقره المتأصل، والإسلام ظـل مستفيداً مادياً من وضعيته الجغرافية السياسية من عمليات عبور القوافل والتجار والسفن. ولا يمكـن تصوّر هذه التحركات التجارية من دون مدن عظيمة، وهي كثيرة في عالـم الإسـلام، وكانت بمثابة التحركات التي تجعل حركـة التنقل الشاسعة هذه ممكنة.

لقد خلقت الدورة الأولى من الغزوات ـ وهي الدورة العربية ـ إمبراطورية ودولـة؛ لكنها لـم تخلق حضارة، ويرى بروديـل أن ازدهار الإسلام وعظمته يعـودان إلـى مـا بيـن القرنين الثانـي عشر والثامـن عشـر، وكل الباحثين مجمعـون علـى ذلك؛ لكن الخلاف يتعلـق باللحظة التي بـدأ فيها التقهقر. لقـد بدأ التراجع الحاسـم منذ القرن الثالث عشر، لكـن هذا يعني الخلط بيـن أمرين اثنيـن جد مختلفين: نهاية هيمنة ونهايـة حضارة. من الواضح أن الإسـلام فقـد آنذاك مركز الريادة، لكن تقهقره الخطير لم يبدأ إلا في القرن الثامن عشر. إن قدر الإسلام هو قدر الكثير من الأمم التي تعدّ أمماً متخلفـة اليـوم؛ لأنها تخلفت عـن ركب الثورة الصناعيـة القادرة على جعل العالم يتقدم بالوتيرة نفسها للآلة نفسها. إلا أن الإسلام لم يمتّ ـ بصفته حضـارة ـ جراء عـدم النجاح هذا. «لقد تأخر الإسـلام عن أوروبا بقرنين على المستوى المادي فقط، لكن أي قرنين!»، يضيف بروديل.

خاتمة

فـي «قواعـد لغة الحضـارات» يشعر القـارئ أنه يقرأ لمـؤرخ وجغرافي وعالـم اجتماع واقتصـادي وانثروبولوجـي وأديب وراوٍ في نصٍّ واحد. لقد أثـارت أراؤه جدلاً كبيراً حول مسائـل الهويات وخصوصيات كل حضارة في العالـم بحيث عدّه البعض أحد المرجعيـات الأساسية في أطروحة صموئيل هنتنغتون حول «صدام الحضارات».

فعلـى سبيـل المثال يذكر برودـيـل أن النظـام الإداري الدقيق والوحدة الثقافيـة والهيمنـة الحكوميـة والتطـور العلمـي لم تـؤدِ إلى ثـورة صناعية فـي الصيـن، ولا إلى قيام نظام بورجـوازي، نفهم أن ذلك لـم يتم بإرادة الحكّام؛ لكن لأن الكثافة السكانية الهائلة لم تبقِ حاجة للاختراع. فقد كان الجهد الإنساني يقوم محل الآلات. ويمكننا أن نقابل من هذه الناحية كثافة الصين السكانية مع ضآلة العديد السكاني في أوروبا. قد تكون هذه الإشارة الديموغرافية أحد أمثلة على منهج بروديل التحليلي.